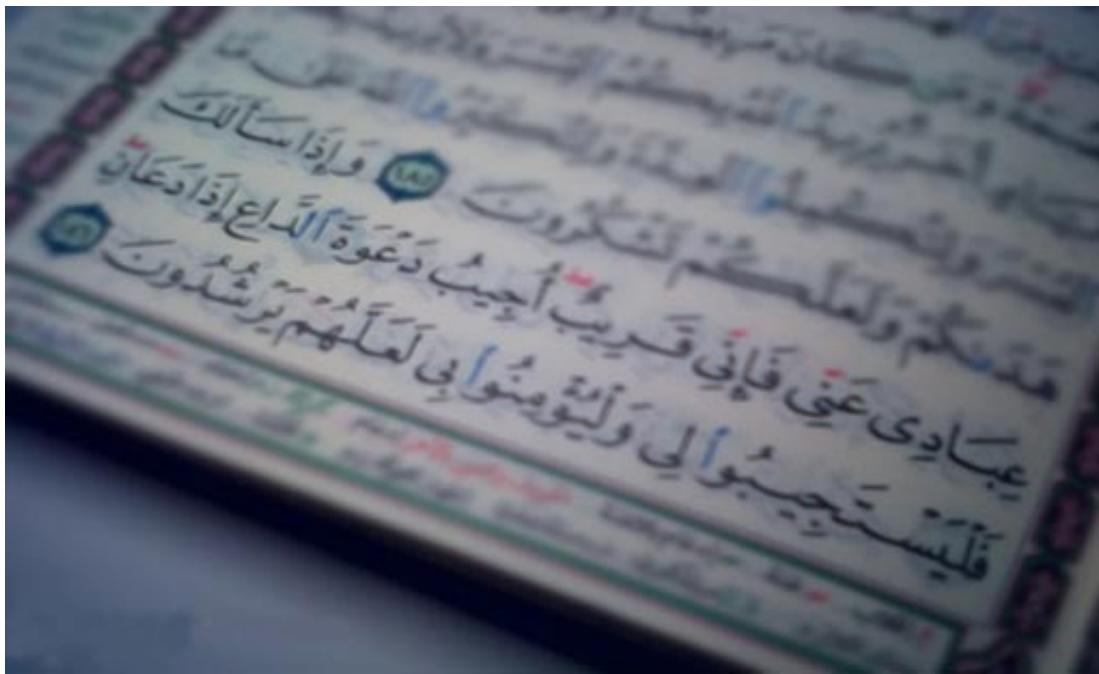


التوكل والطريق الشائك



ـ في حياة الإنسان أيام معاية شاقة، فيها الكثير من الأشواك.. أيام يضطهد فيها الإنسان لدينه أو عقيدته أو إيمانه.. أيام تكون فيها عقيدة الإنسان على المحك، فيختبر ويمحّص، وهذه هي سنّة الحياة.. اختبارات فاختبارات فاختبارات..

وليس أمام الإنسان المبتلى في دينه إلا اختياران، أمّا البقاء وتحمّل مصاعب العمل، والاكتواء بنار التعذيب والفتنة.. وامّا الهجرة إلى ديار أخرى، حيث الأمان والطمأنينة، حيث ينطلق الإنسان من جديد ليتحرّك على نطاق الدعوة إلى الله سبحانه، والعمل الجاد لتبثّيت أسس الدين وعقيدة التوحيد.. وهذا ما اختاره المسلمون الأوائل في هجرتهم إلى الحبشة، وهجرتهم الثانية إلى المدينة.. يقول تعالى: (وَاللَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا طُلُمُوا لَذُبُوهُمْ [1] فَإِنَّ الدُّرْزِيَّا حَسَنَةٌ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النحل/ 41-42). فالتوكل والصبر والهجرة في سبيل الله، أمر على الإنسان أن يضعها في حسابه عند الدخول في دائرة الإيمان والإسلام، لأنّ عقيدة التوحيد تربّي الإنسان دائمًا على المعاناة والشدة، فتصوّغه صياغة جديدة، فيها الكثير من صفاء السريرة، ونقاء الصميم..

ويذكر لنا القرآن الكريم أنّ النعمة التي أنعم الله بها علينا، وهي نعمة الإيمان والهداية، تستوجب منها نحن البشر أن نتوكل عليه سبحانه، وأن نصبر على أذى المشركين، في سبيل الدعوة إليه.. يقول تعالى في حديث عن قوم موسى (ع): (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ رَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مُّثْلُكُمْ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَعْلَمُ مَنْ يَهْمُنُ عَلَيَّا مِنْ يَشَاءُ مِنْ عَبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ زَأْ تَيْكُمْ بِسُلْطَانِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ وَلَيْلَيْتَ وَكَلَ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَاهُنَا سُبُّلَنَا وَلَنَدْصُورَنَّ عَلَى مَا آذَ يَنْهُمْ وَرَأَ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَنْهَدَ وَكَلَ الْمُمْتَوَكَّلُونَ) (إبراهيم/ 11-12). والمعنى: أنّه إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه ونحن مؤمنون به وقد هدانا سبلنا فلننصرن على إيدائكم لنا في سبيل الدعوة إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد ويفعل ما يشاء من غير أن نأوي في ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحال والقدرة.

وفي موضع آخر يصف القرآن الكريم، حالة المجتمع خلال نزول الرسالة الإسلامية ويحملها.. إنّها كانت أمّة كافرة بالرّحمٰن، أمّة واحدة لنعمة الله.. وما على الرسول إلا أن يتوكّل على الله ويبلاّغ

رسالة السماء، فلعله أهادى تلك الأمة الكافرة.. يقول تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَّةٌ لَتَدْلُو عَلَيْهِمُ الْيَدِي أَوْ حَيْنَدَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبُّهُمْ إِلَهٌ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ) (الرعد/30)، فالتوكل على الله سبحانه وتعالى سبحانه قربة لكل المصاعب والمشاكل التي يتحملها الرسول في تبليغ رسالته إلى الناس.. فذكره وإن الاعتماد عليه سبحانه يشفي النفوس المتعبة من أذى الناس وجحودهم وجهلهم..

وفي معركة بدر، والموقف الصعب الهائل، حيث الفئة القليلة المؤمنة تجاه الفئة المشركة، القوية العدة، الكثيرة العدد.. كانت هناك فئة من قريش أسلموا بمكة واحتسبهم أبا قهم، وأضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتى إذا حضروا وشاهدوا ما عليه المسلمين من القلة قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم، فأجابهم القرآن أن التوكل على الله سبحانه هو الذي يمنح الإنسان المؤمن القوة والعزمية، وأن قوة المؤمن وثباته، إنما هو امتداد لإيمانه الراسخ بما سبحانه وتعالى عليه.. يقول تعالى في هذا الصدق: (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُذَمِّنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَيَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأفال/49).

وهكذا يعلّمنا القرآن الكريم أن التوكل على الله سبحانه في وسط الطريق حيث الأشواك والمعاناة والطريق الدامي، هو العنصر الأساسي في استمرار الدعوة للعقيدة التوحيد.. وأن الصلة التي تصل الإنسان بما سبحانه لا بد وأن تكون في أوثق ما تكون أيام المحن والشدائد.. وأن المد الإلهي للإنسان المؤمن بهم أعظم عدّة يتسلّح بها الإنسان في مواجهة الشرك والكفر والإلحاد.. (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوْكِيدٌ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبَيِّنٍ) (الملك/29). ▶

الها مش:

[1] - لنبوئتهم: من بوأت له مكاناً أي سويت وأقرته فيه.

المصدر: كتاب الأخلاق القرآنية